

بيد أنها جاءت وقد أوغلت العلاقة بينهما إيغالها الذي لا تراجع فيه، وصمدت على طريقها تعدو مع الأيام عدوًّا لا تنظر فيه إلى الوراء، وفسح لها الطريق أن همامًا لم يتوغل فيها مَثَقَلًا بتبكيك ضمير؛ لأنه لم يخن هنْدًا ولم يقصر في حقها عليه، ولا وهم أنها تغضب من أمرٍ لا عهد بينه وبينها فيه.

ولقد كانت سارة وهند على مثالين من الأنوثة متناقضين؛ كلاتهما أنثى لا تخرج عن نطاق جنسها، غير أنهما من التباين والتنافر بحيث لا تتمنى إحداهما أن تحل محل الثانية، ويوشك أن تزدريها.

ماذا أقول؟ بل لعلهما من التباين والتنافر بحيث تتمنى كلاتهما قبسًا من طبيعة الأخرى، ولولا أنها تنكر الاعتراف بذلك بينها وبين نفسها، فتسمح للتمنى أن يستحيل إلى نفور.

فإذا كانت سارة قد خُلِقَتْ وثنية في ساحة الطبيعة، فهند قد خُلِقَتْ راهبة في دير، من غير حاجةٍ إلى الدير!

تلك مشغولة بأن تحطم من القيود أكثر ما استطاعت، وهذه مشغولة بأن تصوغ حولها أكثر ما استطاعت من قيود، ثم توشىها بطلاء الذهب وترصعها بفرائد الجواهر. الحزن الرفيع والألم العزيز شفاعة عند هند مقبولة إذا لم تكن هي وحدها الشفاعة المقبولة، أما عند سارة فالشفاعة الأولى، بل الشفاعة العليا، هي النعيم والسرور.

تلك يومها جمعة الآلام، وهذه يومها شم النسيم. تلك تشكو ويخيل إليك أنها ذات أرب في بقاء الشرور تستديم بها معاذير الشكوى، وهذه تشكو كما يبكي الطفل لينال نصيبًا فوق نصيبه من الحلوى.

تلك مولعة بمدارة نقائصها لتبدو كما تتمنى أن تكون، وهذه مولعة بكشف نقائصها لتمسح عنها وضر الخجل والمسبة، وتعرضها في معرض الزينة والمباهاة. تلك لها عدة المتانة والمجاملة، وهذه لها عدة الرخاسة والبساطة، لو عملت تلك عمل الرجال لانتظمت في السلك السياسي، ولو عملت هذه عمل الرجال لانتظمت نديمًا في حاشية أمير مفرح.

كلاتهما جميلة، ولكن الجمال في هند كالحصن الذي يحيط به الخندق، أما الجمال في سارة فكالبستان الذي يحيط به جدول من الماء النмир، هو جزء من البستان لا حاجز دون البستان، وهو للعبور أكثر مما يكون للصد والنفور.